ظاهرة العدول عن القواعد الإختيارية في لغة الشعر

دراسة في ضوء النحو التوليدي التحويلي

الأستاذة: عليك كايسة

جامعة بجاية

قد يصادف الطالب صعوبات في تفسير الانحرافات اللغوية في النصوص الأدبية بصفة عامة، والنصوص الشعرية بصفة خاصة، كما يصعب عليه ربط الصور المنحرفة بالبنيات المثالية الكامنة وراءها، وهذا ما يستدعي الاستفادة من جانبين اثنين في مجال تدريس النصوص الأدبية، هما:

1- الدراسات اللسانية باعتبارها الأداة الأولى للكشف عن القوانين اللغوية في النص الأدبي.

2- الدراسات الأسلوبية التي تتولى مهمّة دراسة الخصائص اللغوية للغة الأدب وتميزها عن لغة الخطاب العادي.

لقد حاولت دراسات كثيرة المزج بين المعطيات اللسانية والدراسات الأدبية، وعلى ربط الجوانب النظرية للظاهرة اللغوية بممارستها الفعلية في مجال الإبداع الأدبي، وقد أكدت معظم هذه الدراسات على أن الإبداع في أساليب الشعر مرتبط، إلى حد بعيد، بدرجة انحراف لغة الشاعر عن القوانين التركيبية والدلالية. وقد تنبهت النظرية التوليدية التحويلية لظاهرة الانحراف عن القواعد الاختيارية بين مفردات اللغة في النص الشعري، فعالجت هذه القضية ضمن مبحثها.

وعلى ضوء ما سبق ذكره، فإن هذه المداخلة تسعى إلى توظيف بعض معطيات النحو التوليدي التحويلي في تفسير الإنحرافات الدلالية في لغة الشعر، وكذا توظيف هذه المعطيات في دراسة تراكيب نص أدبي مختار من كتاب السنة الثالثة ثانوي، وهي قصيدة (الطغاة) للشابي، قصد الكشف عن درجة عدول بعض تراكيب هذا النص عن القواعد الدلالية الاختيارية، ثم إظهار الصلة بين الجانب السطحي والجانب العميق للبنيات اللغوية المنحرفة

مراحل الانتقال من البنية العميقة إلى البنية السطحية:

إننا لا نبدع شيئا جديدا عندما نقول أن أهم ما عرفت به النظرية التوليدية التحويلية هو تميزها، أثناء تحليل الجمل، بين المستوى العميق لهذه الأخيرة والمتمثل في المستوى الذي تفسّر به دلالاتها، والمستوى السطحي المرتبط بالتحقيق الصوتي لهذه الجمل. لكن السؤال الذي يلحّ نفسه أثناء تحليل النصوص الشعرية يتعلق بالإمكانية التي توفرها المعطية السابقة للطلبة أو مدرسي الأدب (خاصة في المرحلة الثانوية) لتفسير الأساليب الشعرية المنحرفة عن المعايير اللغوية بصفة عامة، والقواعد المفرداتية بصفة خاصة، والكشف عن الصور المثالية الكامنة وراء الاستعارات والمجازاة اللغوية.

إن المعطية السابقة هي بمثابة حل اقترحه تشومسكي لوصف التراكيب اللغوية في مستواها الظاهر وربطها بالجانب العميق لتفسير معانيها، وجعل من معطيته هذه أداة فعالة تساعد على التميز بين الجمل النحوية وغير النحوية من جهة، وبين الجمل غير النحوية العديمة المعنى وأخرى خارقة للمعيار النحوي والمقبولة لدى المتلقي من جهة أخرى.

ويسعى النحو التحويلي التوليدي إلى توضيح الكيفية التي تتحول بها البنية العميقة إلى المستوى السطحي، وكذا معرفة ما يسميه تشومسكي بالنحوية في اللغة، والمتمثل في "القواعد التي على أساسها تكون الجملة ما مقبولة لدى صاحب اللغة".[1]

ويتم الانتقال من البنية العميقة إلى البنية الأساسية باعتماد المراحل التالية:

1- مرحلة تكوين التركيب الأساسي: تربط النظرية التوليدية التحويلية مكون التركيب الأساسي بالقدرة والكفاءة على اللغة، ويتشكل هذا التركيب وفق قواعد معينة تقوم هذه الأخيرة على «تحليل الجملة إلى عناصر مختلفة ثم تحليل كل عنصر من العناصر إلى عناصر فرعية» [2] حتى نتحصل على وحدات صغيرة غير قابلة للتحليل.

فتوليد الجملة، التالية: «كتب الطالب النجيب قصتين في الشهر»، يكون كما يلي:

- تتكون الجملة السابقة من: عبارة اسمية + عبارة فعلية

الطالب النجيب + كتب قصتين في الشهر

- العبارة الاسمية تتكون من: تعريف + اسم + صفة

ال + طالب + النجيب

- وتتكون الصفة من: تعريف + اسم

ال + نجيب

- والعبارة الفعلية تتكون من: فعل + اسم + جملة جار ومجرور

كتب + قصتين + في الشهر

- وجملة الجار والمجرور تتكون من: حرف جر + عبارة اسمية

- والعبارة الاسمية تتكون من: تعريف + اسم

ال + شهر.

ونمثل القواعد السابقة بالمشجر التالي:

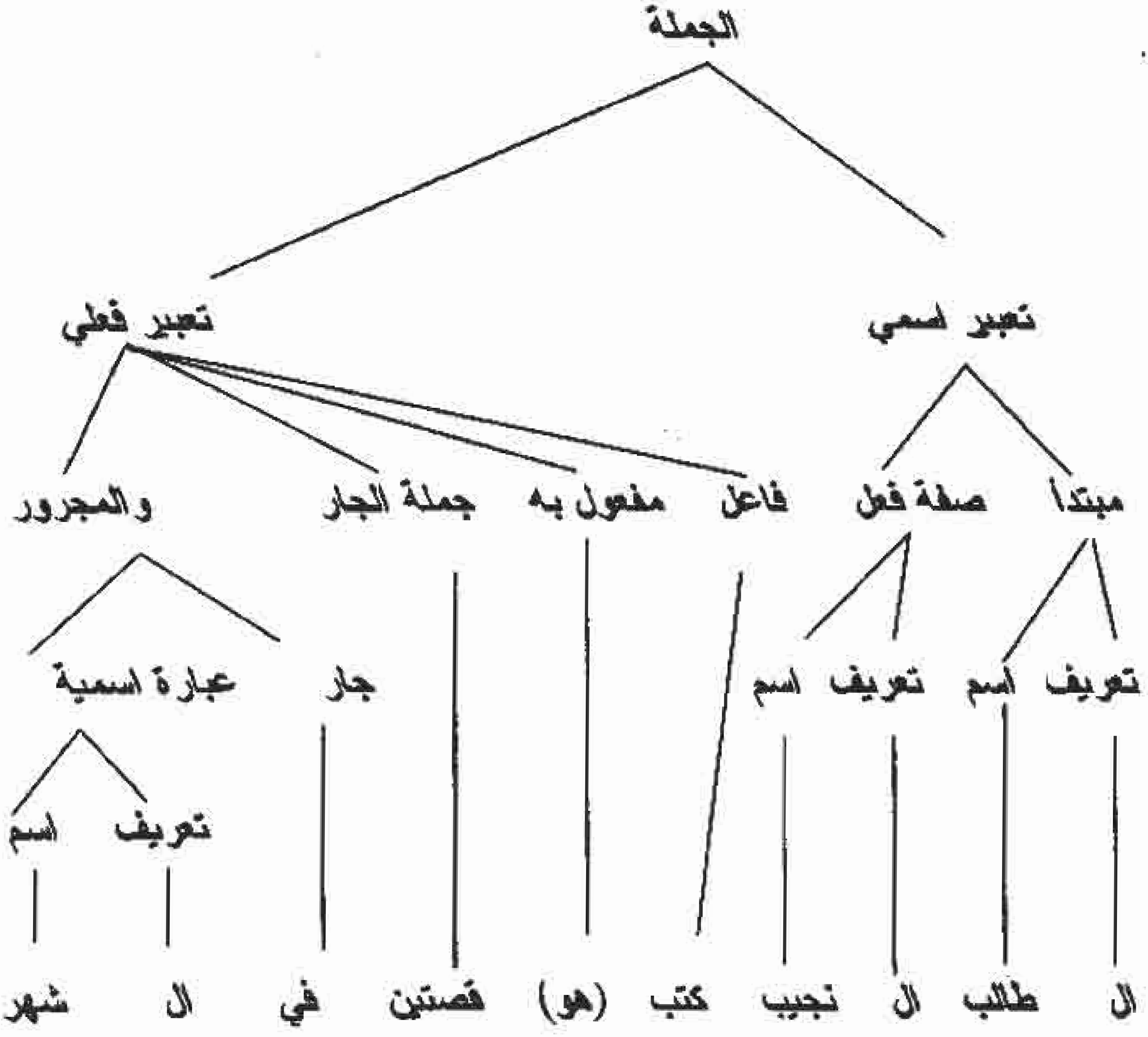

ولدت لنا القواعد السابقة جملة: الطالب النجيب كتب قصتين في الشهر ويظهر لنا المشجر الفئات التي تنتمي إليها عناصر التركيب، وانطلاقا من هذه القواعد يمكن أن تولد عددا هائلا من الجمل المماثلة للجملة السابقة.

مرحلة القواعد المفرداتية: بعد تشكيل التركيب الأساسي، تأتي مرحلة القواعد المفرداتية التي يتم من خلالها "اختيار المفردات أو الكلمات ويتم التحامها مع التركيب الباطني ويحكمها قانون المفردات"[3]، ومن خلال هذه القواعد نستبدل عناصر التركيب الأساسي بالمفردات المناسبة والتي يتم اختيارها وفق سمات كل واحدة. لقد اهتمت النظرية التوليدية التحويلية إلى وضع «قواعد تفريعية سياقية، تنعت بالقواعد الانتقائية، وهي القواعد التي تفرع المداخل

المعجمية تفرعا تركيبيا ودلاليا، وفق سمات انتقائية توارديّة تضبط توتر اللساني في حواليته المألوفة»[4] وتأتي هذه السمات في شكل مفاهيم مثل: معدود، حي، مجرد.... عندما يتعلق الأمر بالاسم، وناقص، مجرد، لازم .... عندما يتعلق بالفعل.

حيث تتفرع فئة الاسم إلى فئات متعددة، تحدد سمات كل فئة باعتماد السمات التالية:

[+ اسم] ، [± عام]، [± متحرك]، [+ إنسان]

[+ عام]، [± معدود]، [± حي] ....

وتسمى بالسمات المتأصلة، ولما تنبه أصحاب هذه النظرية إلى ضرورة إضافة قواعد الإحساس بالسياق إلى جانب السمات المتأصلة، لجئوا إلى تحديد قواعد تقسم الفعل إلى فئات فرعية، وعليها أصبحت المداخل المعجمية تتحرك في ظل قواعد الاختيار والتي تلجأ إلى سمات المفردات أثناء التركيب، و« تنص هذه القواعد على أن سمات الاسم يجب أن تتلاءم مع سمات الفعل، أي توجد في الواقع ضوابط توضع على الاسم الذي يرتبط بفعل معين»[5] وللفعل أيضا قواعد تقسمه إلى فئات فرعية، وتشتغل هذه القواعد داخل السياق. فإذا كان اختيار المفردات سليما كانت الجملة سليمة تتصف بالكمالية، أما إن كان هذا الاختيار غير سليم، أصبحت الجملة غير نحوية، ولا نعني بذلك أنها خاطئة، إنما تكون بحاجة إلى البحث عن المعنى المجازي لتلك المفردات الموظفة في غير ما وضعت له في الاستعمال المألوف.

مرحلة القواعد التحويلية: وبتطبيق القواعد التحويلية ننتقل بالبنية العميقة إلى المستوى السطحي، ويقول تسومشكي في هذا الصدد « فبعد أن ألبسنا المعنى الأساسي ثوب المفردات، حق لنا أن نستعمل القوانين التحويلية لنجعل من التركيب الباطني تركيبا ظاهريا أو سطحيا، مجسدا لشكل الجملة»[6] وتطبق القواعد التحويلية على البنية الأساسية فقط، لأن هذه الأخيرة هي القابلة للتحويل، ويتم هذا التحويل وفق القواعد التالية:

أ) قواعد الترتيب (أو قواعد إعادة الترتيب): فمن حق المتكلم أن يغير موقع عنصر ما داخل التركيب، ذلك بتقديمه أو تأخيره لهذا العنصر وذلك «طلبا لإظهار ترتيب المعاني في النفس»[7] أو رعاية لموسيقى الكلام أو لأغراض أخرى.

ب) قواعد الزيادة: وهو ما يضاف إلى الجملة النواة والهدف هو تحقيق الزيادة في المعنى.

جـ) قواعد الحذف: هو نقص في الجملة النواة التوليدية لغرض معنوي أيضا، بشرط أن تحتفظ الجملة على معناها التام وأن تحمل معنى العنصر المحذوف في سياقها، والهدف الأول من الحذف هو الإيجاز.

د) قواعد التعويض: وهو إحلال عنصر في مكان عنصر أخر.

ه) قواعد التوسيع.

و) قواعد الاختصار.

مرحلة القواعد المورفوفنولوجية: ومن خلال هذه المرحلة يتم تطبيق قواعد صوتية وصرفية للتعبير عن مفردات البنية السطحية. والبنية الصوتية هي السلسلة النهائية التي تنتهي إليها البنية العميقة.

عدول لغة الشعر عن قواعد الاختيار:

يميز علماء اللغة بين مستويين من اللغة، الأول يمثل اللغة المثالية والمستعملة في التواصل العادي، حيث يعكس هذا المستوى الجانب العميق بكل ما يتصف به هذا الأخير من الصحة اللغوية والنحوية والمنطق، والثاني يتمثل في لغة الأدب باعتبارها مغايرة للمستوى الأول ومنحرفة عنه.

إن اختلاف لغة الشعر عن لغة الاستعمال لا يعني أنّ الشاعر يبدع مفردات جديدة غير مألوفة، أو قواعد نحوية غير مستخدمة من طرف أبناء اللغة، وإنما يتمثل في كيفية توظيفه لهذه المفردات وتلك القواعد بطريقة خاصة به يجعل بها هذه المفردات تحطِمُ العلاقات الدّلالية السائدة سلفا بين العناصر

وينشأ علاقات جديدة تصنيفات دلالية مختلفة في الواقع، وهذه العلاقات هي التي تمكّن الشعْر من وجوده، وتحقّق له هدفه الجمالي.

فالأديب يتخذ من اللغة أداة ليصور بها الحياة بطريقة تخالف طريقة التواصل العادية، ويطوعها وفق إرادته، ف«يخترق الاستعمال المألوف للغة، وينتهك الأساليب الجاهزة، ويهدف من خلال ذلك إلى شحن الخطاب بطاقات أسلوبية وجمالية تحدث تأثيرا خاصا في المتلقّي.» [8]

يرتبط العدول عن المعيار في لغة الأدب بانكسار قواعد الاختيار، حيث يخلق الشاعر علاقات بين المفردات في التراكيب بالإسناد إليها وظائف نحوية غير متداولة في لغة الاستعمال، فيوظف الدوال في غير ما وضعت لها، أو يسندها إلى مالا ينبغي أن تسند إليه، ويؤدي انعدام التناسب بين المسند والمسند إليه، أو الموصوف والصفة، أو المضاف والمضاف إليه...إلخ، إلى إنتاج جمل غير نحوية. لكن إمكانية العدول عن اللغة المألوفة بالنسبة للشعر لا مفر منها، لأن هذا العدول هو الذي يحقق للنص الشعري فنيته.

ولقد ربط palmer بالمار التجاوز للقاعدة بدرجة الوعي بهذه الأخيرة، ورسوخها في ذهن المبدع قائلا: «أن كلما كانت قاعدة القياس في اللغة ما أكثر رسوخا كان انتهاكها أكثر تنوعا، وتعددت بالتالي إمكانيات الشعر في تلك اللغة... وكلما كان الوعي بهذا المعيار ضعيفا قلت إمكانيات الانحراف وقلت بالتالي إمكانيات الشعر»[9].

ويتمثل دور اللساني في كل هذا، في الوقوف عند هذا التجاوز للقاعدة النحوية، ومقارنة هذه الأخيرة بالقاعدة التي عدل عنها في كل حالة، وبالتالي، إظهار العلاقة بينهما دون تأمل أو شرح للمعاني والقيم الفنية والجمالية للنص.

لقد حاولت النظرية التوليدية التحويلية أن تخلق نوعا من التقارب بين الحقل اللساني والدراسات الأدبية، وأن تكون أكثر واعية بالمشاكل والتساؤلات التي يتجادل حولها القراء بسبب الغموض الدلالي والالتباسات التي تكون نتيجة تحطيم قواعد الاختيار، فميزت النظرية بين « قواعدية الجملة»

grammaticalité، وهي صفة تخص الجمل التي يتحقق فيها الصحة والكمال النحوي، و« قبولية الجملة » acceptabilité وهي صفة خاصة بالجمل الخارقة للمعيار والمقبولة في اللغة، وجعلت هذه الأخيرة أقل صحة من الجمل المألوفة، كما جعلت من صحة الجمل غير النحوية درجات، ويمكن توضح ذلك بالأمثلة التالية:

1. يعاني اللاجئ من أسى التشرد.
2. يعاني التشرد والحرمان اللاجئ من.
3. يبذر المستعمر شوك الأسى والحرمان في الأراضي المحتملة.

نجد أن الجملة "1" قد تحققت فيها الصحة النحوية واللغوية، أما الجملة "2" فهي بدون معنى لكونها خرقت المعيار، وليست مقبولة. في حين تقع الجملة "3" بين الجملتين "1" و"2" على درجة متفاوتة من الصحة، فلا نصف عدم نحويتها بنفس المعنى الذي نصف به الجملة"2"، ولكنها غير مركبة تركيبا سليما، ولم يتحقق فيها المعيار، رغم أنها مقبولة لدى الجماعة اللغوية.

وقد أشار thorne ثورن إلى هذا النوع من الجمل "المقبولة"، وسماها بالجمل "الفجة" semi sentence، ويرى بصددها أنها « مشكلة خطيرة بالنسبة للغوي، ويتأتى عدم نحويتها لا من انعدام البنية التركيبية، وإنما من كونها ذات بنية تركيبية تختلف عن تلك التي تكون عليها الجمل الكاملة التكوين، ومع ذلك فإن من الممكن شرح هذه الجمل، وإن كان ينبغي لمثل هذا الشرح أن يعرف بأنه شرح مجازي».[10]

إن الأخذ بالمنظور التوليدي التحويلي يقود بنا إلى إدراك أهمية القواعد في التفسير الدلالي للجانب الإبداعي، وإيجاد التناسب بين العناصر التي تبدو على المستوى السطحي مخالفة للقواعد بسبب انعدام التلاؤم بينها، لكنها تحمل في المستوى العميق صورا مثالية وأنها تتحرك في ظل القواعد اللغوية، حيث إن الإبداع في الواقع يتم داخل النظام اللغوي.

درجة الانحراف عن "السمات الاختيارية" في قصيدة الطغاة "للشابي":

تتسم أبيات قصيدة "الشابي" من بدايتها إلى نهايتها بالانحراف عن القواعد المفرداتية، وذلك نتيجة لمحاولة الشاعر خلق علاقات جديدة بين مفردات تنتمي إلى حقول دلالية مختلفة، وهذه العلاقات غير مألوفة في لغة التواصل العادي مما يضفي عليها سمة المغايرة والعدول عن النمط الأساسي، ويتجلى عدول لغة الشاعر عن لغة القياس في اختراق تراكيب النص لمنطق الإسناد، وغياب التناسب والتلاؤم بين عناصر هذه التراكيب.

لنتأمل أبيات القصيدة:

ألا أيها الظالم المستبدّ	حبيب الفناء عدو الحياة
سخرت بأنات شعب	وكفك مخضوبة من دماه
وعشت تدنّس سحر الوجود	وتبذر شوك الأسى في رباه
رويدك لا يخدعنك الربيع	وصحو الفضاء وضوء الصباح
ففي الأفق الرحب هول الظلام	وقصف الرعود وعصف الرياح
ولا تهزأن بنوح الضعيف	فمن يبذر الشوك يجن الجراح
تأمل هنالك أنى حصدت	رؤوس الورى وزهور الأمل
ورويت بالدم قلب التراب	وأشربته الدمع حتى ثمل
سيجرفك السيل سيل الدماء	ويأكلك العاصف المشتعل

يتضمن كل بيت من هذه الأبيات على الأقل صورة واحدة منحرفة عن قواعد الاختيار، ففي البيت الأول وردت علاقة الإضافة في: "حبيب الفناء" و"عدو الحياة"، حيث تبدو هذه العلاقة في ظاهرها بدون معنى، رغم أنها تحمل معنى ومقبولة من طرف المتلقي، إذ أن في الواقع ليس "للحياة عدو" وليس "للفناء حبيب"، فقد جعل الشاعر من "الفناء" و"الحياة" أفرادا العاديين، يحبان ويكرهان عن طريق الاستعارة.

لم يراع الشاعر سمات الاختيار أثناء إنشاء العلاقات بين كل من (الحياة والعداوة) و(الفناء، المحبة). فمن سمات الكلمتين: "عدو" و"حبيب": +حي، +متحرك،

-علم، -شيء. ومن سمات الكلمتين: "الحياة" و"الفناء": -حي، -متحرك، +عام، +شيء، +مجرد.

نجد أن الكلمتين (الحياة، الفناء) تنتميان إلى فئة الاسم لكنهما تحملان سمات – حي، – متحرك. في حين نجد الكلمتين (عدو، حبيب) تنتميان إلى فئة الاسم، لكنهما لا تقبلان مضافا إليه يحتوي السمات السابقة، أي (– حي، – متحرك، + مجرد). ويوجد في لغة الواقع جمل لها نفس التركيب الأساسي في البنية العميقة مع الجملة السابقة، مثل: المستعمر محب للعبودية ونابذ للحرية.

و التركيب الأساسي لهذه الجملة هو:

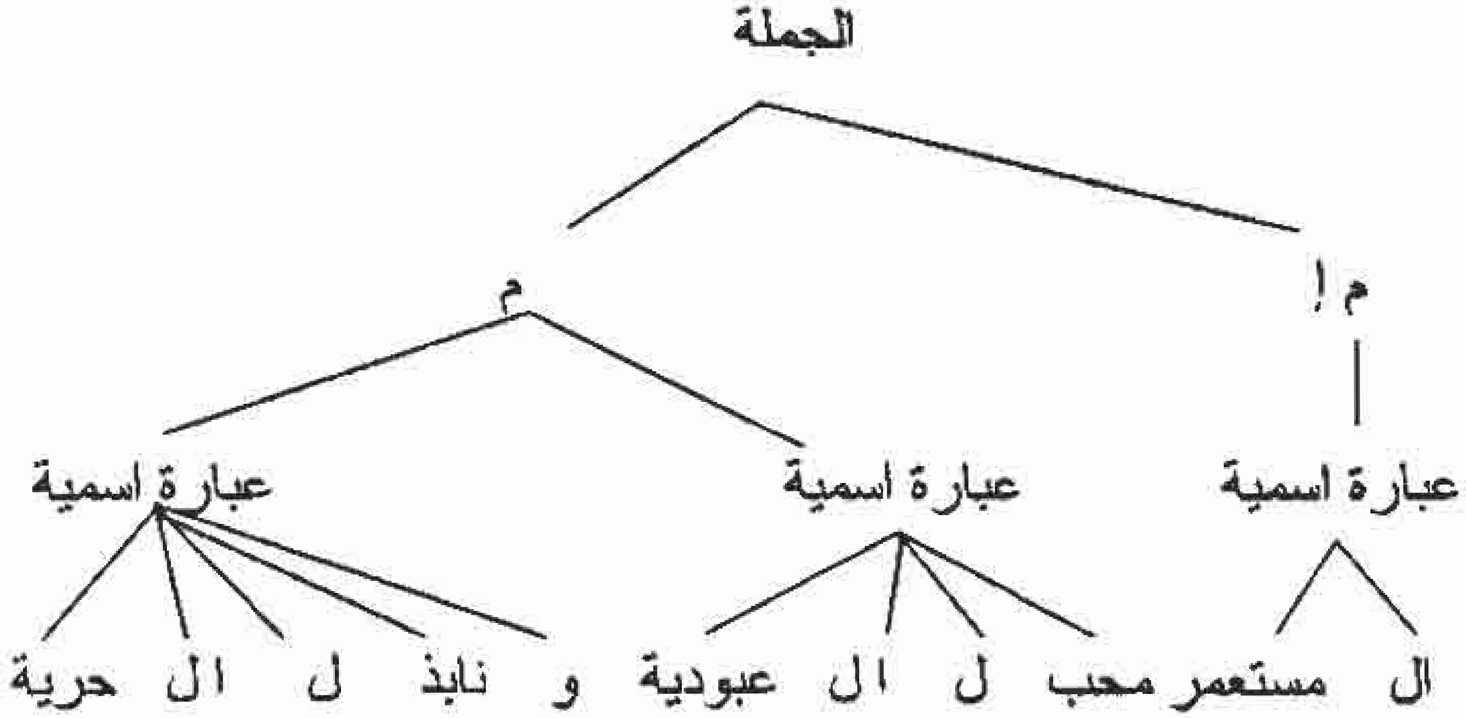

فقد انفعل الشاعر مع محتوى هذه الرسالة في الواقع ثم أخرجه إلى المستوى الظاهر في صورة متسمة بالخيال والوهم، حيث ألبس بعض فرضيات التركيب الأساسي مفردات غير مناسبة وغير ملائمة للتعويض بها عن عناصر التركيب السابق. ويظهر انعدام التناسب في العلاقة النحوية الجديدة التي أنشأها الشاعر بين (حبيب)و(فناء)، وبين (عدوّ) و(حياة). فقد وقع اختياره في مكان (محب)، على كلمة (حبيب)، وفي مكان (العبودية)، على كلمة (الفناء)، وفي مكان (نابذ) أختار (عدو) واختار (الحياة) في مكان (الحرية) وبعد تطبيق القواعد التحويلية على الجملة، حذف عنصر (المستعمر) ونكرت صفاته، ويمكن توضيح الانحراف في العبارة (حبيب الفناء عدو الحياة) كما يلي:

من سمات (حبيب) ← اسم ← + حي، + متحرك، − مجرد،− عام.

من سمات (الفناء) ← اسم ← − حي، − متحرك، + مجرد، + عام.

ومن سمات(عدو) ← اسم ← + حي، + متحرك، − عام ....

ومن سمات (الحياة) ← اسم ← − حي، − متحرك، + عام ......

نلاحظ انعدام التوافق بين السمات الذاتية(− حي،− متحرك، + عام، +شيء) للاسم (الفناء)، والسمات الاختيارية (+ حي، + متحرك، − عام، − مجرد) للاسم (حبيب)، بمعنى أن السمات الذاتية للمضاف(حبيب)لا تسمح له بأن يختار(الفناء) كمضاف إليه.

كما أن السمات الذاتية (+ حي، + متحرك، − عام) للمضاف (عدوّ) تتناقض مع السمات الاختيارية (− حي، − متحرك، + عام) للمضاف إليه (الفناء) لذا ينعدم التناسب بين المضاف (عدّو) والمضاف إليه (الحياة).

وهذا التفرع التركيبي والدلالي للمفردات وفق سمات ذاتية واختيارية هو الذي يحدد لنا خاصية الانحراف في عبارة (حبيب الفناء وعدو الحياة).

نفس الشيء ينطبق على معظم الإضافات الواردة في النص:

مثل: شوك الأسى، سحر الوجود، زهور الأمل، رؤوس الورى، قلب التراب، سيل الدّماء، هول الظلام.......

حيث يتناقض المحتوى الدلالي لهذه العبارات، كما يبدو في مستواها السطحي، مع واقع اللغة إذا ما أخذنا بالمعنى الحقيقي لهذه العبارات،إذ أن في الواقع ليس للأسى شوك، ولا للوجود سحر، ولا يملك الترب قلبا، ولا الأمل زهورا....

ولنتأمل التراكيب التالية:

- تدنس سحر الوجود

-تبذر شوك الأسى في رباه

- يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح

- من يبذر الشوك يجني الجراح

-يأكلك العاصف المشتعل.

هذه التراكيب سليمة من الناحية النحوية، لكنها خاطئة الدلالة إذا ما نظرنا إلى معناها الحقيقي وليس المجازي. ومنها فإن الصيغة النحوية تظهر فعاليتها خلال المعاني التي تؤديها، وطبيعة العلاقات النحوية والدلالية التي تجمع بين عناصرها.

فلا يكفي أن تتوفر الجملة « تبذر شوك الأسى في رباه» على العناصر النحوية (فعل + فاعل + مفعول + مضاف إليه + جار + مجرور) لتكون صيغتها سليمة نحويا، وإنما يجب أيضا مراعاة الناحية الدلالية للمفردات التي تحل محل المشير الركني في البنية العميقة، أي لا يكفي أن نختار اسم فاعل ونضعه مكان الفاعل ليؤدي وظيفة الفاعلية، وإنما هذا مرتبط بدلالة المفردة التي تؤدي هذه الوظيفة، وبعلاقتها مع المسند، والمفعول، وبقية عناصر الجملة. وهذا الشرط غير متوفر في جملة «تبذر شوك الأسى في رباه» التي تبدو في مظهرها خاطئة المعنى بسبب العلاقات الجديدة التي أنشأها الشاعر بين مفرداتها، بل هي مناقضة للواقع اللغوي، وفي نفس الوقت، جملة ذات معنى كامل في المستوى العميق. والتركيب الأساسي لهذه الجملة في المستوى العميق هو:

الجملة ← فعل + فاعل + مفعول به + مضاف إليه + جار + مجرور.

تبذر + (أنت) + شوك + الأسى + في + رباه.

فلهذه الجملة نفس البنية العميقة مع جمل أخرى صحيحة وموجودة في لغة الواقع، مثل:

تسلط أنواع العذاب على الشعب

فالجملة الأولى غامضة الدلالة والثانية واضحة، والسبب في غموض الأولى هو انعدام التناسب بين عناصرها من حيث السمات الدلالية لهذه الأخيرة. فلنحدد سمات كل عنصر:

يبذر ← فعل ← + تام، + متعد، + فاعل حي، + مفعول مزروع، ...

شوك ← اسم ← − مجرد، − حي، + نبات، − متحرك، + جامد....

الأسى ← اسم ← + مجرد،− حي، − نبات، − متحرك،− جامد، − مزروع....

نلاحظ انعدام التوافق بين المفعول به (تشوك) والمضاف إليه (الأسى)، لأن السمات الذاتية (+مجرّد، − نبات) في (الأسى) لا تتناسب مع السمات الاختيارية (− مجرد، + نبات) في (الشوك)، حيث إن السمات الاختيارية للاسم الأخير لا تسمح له باختيار (الأسى) كمضاف إليه.

ونجد أيضا أن السمات الدلالية الذاتية لكل من (شوك) و(الأسى) تتصادم مع سمات الفعل (يبذر)، حيث إن السمة الاختيارية لهذا الأخير (+مزروع) لا تتوافق مع السمة الذاتية (− مزروع) في كل من (الشوك) و(الأسى)، ولا تتوافق كذلك مع السمات الذاتية (− نبات، + مجرّد) في (الأسى).

نصل من خلال ما سبق توضيحه إلى أن الغموض الدلالي في جملة (يبذر شوك الأسى) هو نتيجة انعدام التوافق الدلالي بين عناصر هذه الجملة والمعنى الحقيقي لهذه الأخيرة نجده في المستوى العميق، وهو:

تسلط أنواع العذاب على الشعب.

وإذا انتقلنا إلى الجملة "يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح" نلاحظ إسناد (الربيع والصحو والضوء) إلى (الخداع)، وهو نوع من المجاوزة

والمغايرة، لأن الخداع ليس من خصائص الربيع أو الصحو أو الضوء في الواقع. فقد جعل الشاعر من هذه الأمور الثلاثة الأخيرة كائنات حية متحركة، حيث إنّ الخداع من صفات الإنسان أو بعض الحيوانات الماكرة، فلو اسند في الجملة السابقة (الخداع) إلى الإنسان أو الحيوان لما كانت الجملة واضحة الدلالة. والبنية العميقة لهذه الجملة هي كما يلي:

ج ← فعل + فاعل + حرف عطف + فعل + فاعل + مضاف إليه + حرف عطف + فعل + فاعل + مضاف إليه + مفعول به.

← يخدع + الربيع + و+ يخدع + صحو + الفضاء + و+ يخدع + ضوء + الصباح + أنت.

وبعد تطبيق القواعد التحولية التالية على الجملة السابقة وهي:

❖ الحذف: حذف الفعل الثاني والثالث لأنه مشترك بين الجمل المعطوفة، والغرض هو الإيجاز.

← يخدع الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح أنت.

❖ إعادة الترتيب: يتم بتقديم المفعول به (أنت) عن الفاعل، (يخدع) ويتأخر هذا الأخير عن المفعول به.

❖ التعويض : يتم بإحلال الضمير (كاف) محل (أنت).

← يخدعك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح.

❖ الزيادة: إلحاق (الفعل) نون التوكيد الخفيفة.

← يخدعنك الربيع وصحو الفضاء وضوء الصباح.

وهي جملة الشاعر المنحرفة، لكن يوجد في الواقع اللغوي جمل لها نفس البنية العميقة لهذه الجملة، مثل: يَغرُنْكَ الهدوءُ وضعف الشعوب واستقرار حياتك.

والاختلاف بين الجملتين يكمن في أن العلاقات النحوية في الجملة الثانية هي علاقات طبيعية ومألوفة في الواقع، في حين أن الإسناد والعلاقات الأخرى التي تجمع بين عناصر الجملة الأولى أمران غير طبيعيان بسبب انعدام التوافق

بين المشيرات الدلالية والنحوية لعناصر هذه الجملة. إذ نجد الشاعر قد نسج بين تلك العناصر علاقات لا وجود لها في الواقع، ذلك كإسناد (الربيع) و(الصحو) و(الضوء) إلى (الخداع)، حيث لا يصلح هذا الإسناد لأن السمات الاختيارية (+ فاعل حي، + فاعل متحرك، + فاعل محسوس، + فاعل معدود) في الفعل (يخدع) لا تناسب السمات الذاتية (- حي، - متحرك، - معدود) في كل من (الربيع) و(الصحو) و(الضوء). وبتعبير آخر فإن السمات الاختيارية للفعل (يخدع) لا تسمح لهذا الأخير بأن يختار (الربيع) أو (الصحو)، أو (الضوء) فاعلا له.

وإذا تأملنا البيت السادس، نلاحظ أن الجملة "من يبذر الشوك يجن الجراح" أيضا غامضة الدلالة إذا ما أخذنا بمعناها الأول، وهي مناقضة لما هو مألوف في لغة الاصطلاح، لأن الأشواك لا تبذر في الواقع، كما أن الجراح لا تجنى. لكن هناك في الواقع اللغوي جمل واضحة الدلالة، ولها نفس البنية العميقة مع جملة الشاعر. مثل:

"من يفعل سوءا ينل عقابا"

و يتضمن هذا التركيب الرسالة أو المحتوى الدلالي الذي تفاعل معه الشاعر في الواقع، وأخرجه في تركيب آخر خارق للمعيار، لأن العناصر المكونة للتركيب "من يبذر الشوك يجن الجراح" لا تربط بينها في الواقع اللغوي علاقات نحوية ودلالية، ويظهر ذلك في العلاقة المفعولية في (يجن الجراح)، وفي (يبذر الشوك)، حيث أن السمات الاختيارية (+ مزروع) في الفعل (يبذر) لا تسمح لهذا الأخير بأن يختار اسما يحمل سمة ذاتية (- مزروع) كما في (الشوك)، والسمات الاختيارية (+ نبات، + مغروس، + ثمار،....) لا تناسب السمات الذاتية (- نبات، - مغروس، - ثمار، ...) في الاسم (الجراح).

وإذا تمعنا في الأبيات الأخيرة، بدى لنا أن درجة الانحراف عن قواعد الاختيار هي أكثر تنوعا وتعددا، وهذا مرتبط بتعدد الاستعارات والمجازات التي

جعلت من لغة النص انكسارا تاما للغة الواقع. ونجد الشاعر في البيت السابع ينبه الاستعمار بجرائمه قائلا:

تأمل هنالك أنى حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل.

فكيف للمستعمر أن يحصد رؤوس الورى وزهور الأمل إذ أن الرؤوس لا تحصد، فالعلاقة بين (الفعل والمفعول) تعد من باب المجاز، وإذا غيّرنا كلمة (رؤوس) بكلمة أخرى سماتها الذاتية تتناسب (في الواقع اللغوي) مع السمات الاختيارية للفعل (حصد) أخللنا بالعلاقة النحوية والدلالية للعبارة السابقة مجال اللغة العادية. ويستحيل أيضا حصد زهور الأمل في الواقع لأنه ليس للأمل زهور. فإذا بحثنا عن البنية العميقة للتركيب السابق وجدناها كما يلي :

ج ← عبارة فعلية + عبارة اسمية + عبارة فعلية + عبارة اسمية

حصد ت + رؤوس الورى + (حصد ت) + زهور الأمل

وبتطبيق القاعدة التحويلية على الجملة، وهي الحذف، تحذف العبارة الفعلية في الجملة الثانية لكونها معطوفة على الأولى وذلك للإيجاز، وتصبح الجملة كما يلي:

ج ← حصدت رؤوس الورى وزهور الأمل.

وتوجد في لغة الاستعمال جمل لها نفس البنية العميقة مع الجملة السابقة مثل:

- أزهقت أرواح الأبرياء وقتلت رجال المستقبل.

تتصف جملة الشاعر بتحطيم اللغة المعيارية بسبب:

- انعدام التناسب بين السمات الذاتية (- نبات) في المفعول به (رؤوس)، والسمة الاختيارية (+ مفعول نبات) في الفعل (حصد).

- انعدام التناسب بين السمة الذاتية (+ مجرد) في المضاف إليه (الأمل) والسمة الاختيارية (+ محسوس) في مفعول به (زهور).

نلاحظ أيضا في البيت الثامن جملة «رويت بالدم قلب التراب» تتسم بدورها بالالتباس، وانعدام المعنى فيها إذا نظرنا إلى المعنى الحرفي لمفرداتها، وتكون بنيتها العميقة كما يلي:

ج ← عبارة فعلية + عبارة اسمية + جار ومجرور.

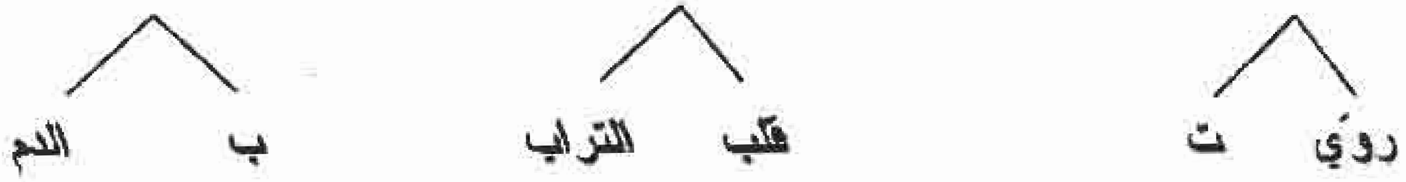

أجريت عليها قاعدة تحويلية هي:

<u>التعويض</u>: وهو تقديم الجار والمجرور وإحلاله محل المفعول به، وتأخير هذا الأخير جوازا، وهذا التعويض لا يؤثر على معنى الجملة.

وللجملة السابقة نفس البنية العميقة مع جمل أخرى موجودة في الواقع اللغوي، مثل:

سيلت على الأرض دماء الأبرياء

والاختلاف بين الجملتين هو أن جملة الشاعر غامضة الدلالة في ظاهرها، وأن العلاقات الدلالية والنحوية التي تجمع بين عناصر هذه الأخيرة علاقات غير عادية (علاقة الإضافة والمفعولية، والفاعلية) في حين تبدو الجملة الثانية واضحة الدلالة، تجمع بين عناصرها علاقات طبيعية مألوفة في الاستعمال العادي.

فلا وجود في الواقع لـ:

- علاقة المفعولية بين (روّى) و(قلب)
- تعلق الجار والمجرور في (بالدم) بالفعل (روّى).
- علاقة الإضافة بين (القلب) و(التراب).

هذه الأمثلة المأخوذة من نص "الشابي" ما هي إلا نماذج قليلة تتجسد فيها ظاهرة الانحراف الأسلوبي بشكل واضح، وقد تم التركيز على جانب واحد وهو الانحراف الناتج عن إنشاء علاقات جديدة بين مفردات من حقول دلالية مختلفة

لا علاقة بينها في الواقع، وقد تتجاوز ظاهرة الانحراف هذه الناحية، لتمس الصيغ الصرفية والصيغ النحوية في كثير من النصوص الشعرية.

ونصل من خلال ما سبق عرضه إلى:

1-إنه بوسع المحلل أو الناقد أن يعود بالفئات المنحرفة عن الأصل في النص الشعري إلى صورَها المثالية لتتوافق مع قواعد الاختيار، ويدخل بها نطاق النظام اللغوي المألوف من أجل تحقيق التناسب والتوافق بين سمات الفئات، وليصبح السياق ممكنا، إلا أن ذلك سوف يفقد النص أسلوبيته وقيَمه الجمالية والفنيّة، فيدخل النص بدوره حيز النصوص النثرية العادية.

2-إن خاصية الانحراف هي التي تميز لغة الشعر عن لغة الواقع وهي التي تضفي على الأسلوب الشعري صفاته.

3-لقد أصبحت النظرية التوليدية في ظل الأسلوبية الحديثة أداة مهمة تساعد على البحث عن قوانين الخطاب الأدبي، وتشكل هذه النظرية المرجعية الأولى، إلى جانب حقول لسانية أخرى، تستمد الأسلوبية منها كثيرا من معطياتها، وقد تفاعلت هذه العلوم كلها فيما بينها وقدمت للنقد الأدبي تقنيات التحليل ناجعة تسد بها نقص ما تبنته البلاغة التقليدية.

الهـــوامـــش

1- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة للطباعة والنشر. الإسكندرية: 1986 ص 116.

2- أحمد سليمان ياقوت، في علم اللغة التقابلي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية: 2002. ص95

3- أحمد سليمان ياقوت، نفس المرجع ص 92.

4- أحمد حساني، السمات التفريعية للفعل في البنية التركيبية – مقاربة لسانية – ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر: 1993. ص 126 – 127.

5- نقلا عن : N.Chomsky, aspects de la théorie syntaxique, P : 157.

6- د| ميشال زكريا، مباحث في النظرية اللسانية وتعليم اللغة، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1984 ص114.

7- د| أحمد سليمان ياقوت المرجع السابق، ص 107.

8- د| خليل أحمد عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، ط1، عالم المعرفة- جدة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية: 1984 ص 88

9- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار الطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ج1: 1997 ص 179.

10- عبد الحكيم الراضي، نظرية اللغة في النقد، مطابع الدجوى- القاهرة -:1980، ص نقلا عن :p252، palmer 1971. ص96

11- عبد الحكيم الراضي، نفس المرجع، ص 489، نقلا عن: Thorne.
«Generative Grammar and stylistic analysis, new horizons in linguistic» p 185